

## الإبستمولوجيا التكوينية: نموذج لتطبيق المنهج في العلوم الإنسانية

Genetic Epistemology: A Model For The Curriculum Implementation In The Human Sciences

تاريخ القبول: 2018-06-20

تاريخ الإرسال: 2018-06-13

الدكتورة: خيرة عبد العزيز

[abdelazikheira@yahoo.fr](mailto:abdelazikheira@yahoo.fr)

جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف- الجزائر

## الملخص:

لقد عرفت العلوم الإنسانية تطورات مهمة منذ نشأتها في العصر الحديث، سواء أكان ذلك على مستوى الموضوع أو المنهج لارتباط مسار تطورها بالتطور الحاصل في المنظومة المعرفية العلمية عامة، من خلال محاولات التجاوز التدريجي لتعقيداتها الإبستمولوجية، باتجاه التأسيس لمناهج علمية نوعية في بحوثها، وكأ نموذج لذلك حقل الإبستمولوجيا التكوينية، كأحد فروع العلوم الإنسانية الجديدة، التي استفادت فيه الإبستمولوجيا من علم النفس التكويني، اعتماداً على المنهج التكويني بمحاولة جعل المعطى النفسي ضرورة في تحليل سيرورة المعرفة، بالتحليل الإبستمولوجي لكيفية نمو وتكون المعارف الإنسانية، كشكل من أشكال الدراسة المنهجية العلمية التجريبية التي تقترب في آلياتها من المنهج العلمي المطبق في العلوم الطبيعية، وهذا ما أسهم بدوره في تطوير المناهج السيكلوجية والتربوية والاجتماعية وما إلى ذلك.

## الكلمات المفتاحية:

العلوم الإنسانية، الإبستمولوجيا التكوينية، المنهج، السيكلوجيا، مناهج التربية.

## Abstract

Human sciences have witnessed crucial developments since its emergence in the modern era, whether at the level of the subject or method, due to the scientific and cognitive system evolution in general, through some attempts to overcome gradually its epistemological complexities, in order to establish qualitative scientific approaches in its research. Thus, Genetic Epistemology is viewed as one of the branches of the new human sciences. Epistemology has, in fact, benefited from Genetic Psychology, depending on the Genetic approach by trying to make the psychological element as necessity in the analysis of the knowledge process. And then, through the use of the epistemological analysis to depict how the human knowledge grow and be formed, as a form of scientific experimental study, which seems similar to the mechanisms of the scientific method applied in the Natural Sciences, it could be contributed to the development of psychological, social and educational curricula.

**key words:** Human sciences (Humanities), Genetic epistemology, Method, Psychology, Curriculum of Education.

## مقدمة:

شهدت العلوم الإنسانية تحولات مهمة منذ نشأتها في العصر الحديث بحثاً عن مناهج علمية تتناسب وطبيعة موضوعاتها يبدأ أن عملية البحث هذه لم تكن بالأمر الهين، بالنظر للتعقيدات الإبستمولوجية المتعلقة بطبيعة موضوعها المتشابك الأبعاد، لذا واجهت هذه العلوم خاصة في بدايات تأسيسها الكثير من الاعتراضات والانتقادات من طرف العلماء والإبستمولوجيين الذين شككوا في علميتها، خاصة في ظل وجود نموذج منهجي سابق على وجودها والمتمثل في المنهج العلمي المطبق في العلوم الطبيعية، الذي يقوم أساساً على التحقق التجريبي المباشر كمياري لمصادقية وموضوعية نتائجها.

وبذلك أصبح هذا النموذج مقياس علمية العلوم بشكل عام، والمعرفة التي يستعصي موضوعها على التجريب لا يمكن تصنيفها ضمن مجال العلم الحديث، إلا أن الكثير من المفاهيم العلمية كمفهوم المنهج والتجريب تمت مراجعتها خاصة بعد

التحوّلات التي شهدها تاريخ العلم مع نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م، والمتعلّقة بتلك الثّورة التي حصلت في مجال الفيزياء بمناقشة مبادئها وإعادة النظر في مفاهيمها والتحوّل من الفيزياء الكلاسيكية إلى فيزياء الكوانطا وبروز مفاهيم جديدة في قاموس العلم كالنسبية والاحتمال واللاحتمية وغيرها.

إنّ هذه المراجعة لمفاهيم ومناهج العلم وحسب مفهوم العلم ذاته بتجاوز الرؤية الكلاسيكية له فتح المجال أمام العلوم الإنسانية لبحث عوائقها الإبيستمولوجية والمنهجية والعمل على تجاوزها تدريجياً، والاستفادة من هذا التحوّل المعرفي بتكثيف الجهود والمحاولات باتجاه التأسيس لمناهج خاصّة تتلاءم وطبيعة موضوعاتها المتداخلة التي تتمركز حول الإنسان كظاهرة في أبعاده المختلفة، استناداً إلى علم المناهج الذي تطوّر قياساً بالتطوّر الحاصل في تاريخ العلم، إذ أصبح لا يُنظر إلى المنهج نظرة أحادية دوغمائية من داخل حقل الفيزياء فقط، وإنما بمراعاة أنّ طبيعة موضوع العلم هي التي بدورها تحدّد نوعية المنهج المناسب للدراسة فالمنهج الرياضي يختلف عن منهج العلم الطبيعي وهكذا لمختلف التخصصات الأخرى، "وبما أنّ العلوم تمتاز بموضوعاتها فهي تختلف كذلك بمناهجها، ولذلك لا يمكن الحديث عن منهاج عام للعلوم للكشف عن الحقيقة في كلّ ميدان، بل فقط عن مناهج علمية، إنّ لكلّ علم منهاجه الخاصّ تفرضه طبيعة موضوعه"<sup>(1)</sup>، وهذا ما استفادت منه العلوم الإنسانية في بلورة مناهج علمية خاصّة بها، تماهى وطبيعتها الإبيستمولوجية المعقّدة بالنظر للتداخلات والتقاطعات بين موضوعاتها التي تتمركز حول الإنسان كظاهرة ممّا نتج عن ذلك تعدّد التخصصات داخلها وتعدّد الفروع داخل هذه التخصصات بإقامة علاقات بينية بينها وبين العلوم الأخرى، هذا ما طرح العديد من الإشكالات المعرفية والمنهجية في مجالها، وكوّن أنّ الإبيستمولوجيا لها علاقة بكافة مجالات العلوم، فقد كانت العلوم الإنسانية أيضاً محلّ اهتمامها، إنّ هذا التقارب أذى بدوره للبحث في جذور هذه الإشكالات بإتجاه تأسيس منهج علمي يقترّب من الدراسة الوضعية في العلوم الطبيعية، من خلال تأسيس فرع إنساني جديد وهو الإبيستمولوجيا التكوينية، هل هذا التقارب بين العلوم الإنسانية والإبيستمولوجيا مكّنها من تجاوز تعقيدها الإبيستمولوجي وتهيئة موقفاً خاصاً بها ضمن المنظومة العلمية المعاصرة؟ وإذا كان البحث في هذا المجال غايته الكشف عن القوانين وإقامة النظريات لفهم وتفسير ظواهرها اقتداءً بنموذج العلوم الطبيعية؟ فهل استطاعت الإبيستمولوجيا التكوينية أن تحقّق هذه الغاية؟

### 1- العلوم الإنسانية والإبيستمولوجيا:

إنّ العلوم الإنسانية منذ أن انفصلت عن الفلسفة في العصر الحديث، سعت لتطبيق المنهج العلمي "فقد اتّبع مساراً مماثل لبعض جوانب العلوم الطبيعية ولو مع الفارق الزمني الكبير بينهما"<sup>(2)</sup>، محاولةً إنشاء مجال معرفي خاصّ بها، بالرغم من الإشكالات المعرفية والمنهجية التي واجهتها في كلّ مرحلة من مراحل تطوورها، وعلى إثر ذلك استطاعت العلوم الإنسانية أن تجد لها موقفاً ضمن المنظومة العلمية الحديثة والمعاصرة، فبعد أن كانت هذه العلوم بمختلف تخصصاتها السياسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية وما إلى ذلك في بداية نشأتها موحّدة مع "أوغست كونت" في علم الاجتماع أو ما سماه بالفيزياء الاجتماعية تعدّدت بعد ذلك مجالاتها المعرفية، إذ أصبحت أكثر اتّساعاً لأنّ تُضاف إليها علوم جديدة سواء في دائرتها الخاصة أو في علاقتها بالعلوم الأخرى كالمنطق والبيولوجيا والفيزياء وما إلى ذلك، فانتقلت من الوحدة إلى التعدّد لتوفّر الشروط الموضوعية لذلك، والعلوم الإنسانية مثلها مثل العلوم الطبيعية أفرز تطوورها تعقيدات معرفية عدّة فكان ذلك دافعاً

لتعاونها مع الإبستمولوجيا كفرع معرفي منفتح على كل العلوم، والاستفادة منها في دراسة عوائقها الإبستمولوجية بالبحث عن سبل تجاؤها عن طريق تفعيل آليات التقيد لمبادئها وفروضها ونتائجها، لاسيما ما تعلق منها بمسائل المنهج، بهدف تحصيل الدقة والموضوعية في دراسة ظواهرها.

### أولاً- الإبستمولوجيا: المفهوم والمجال المعرفي

إنّ الإبستمولوجيا لها ارتباط واسع بالمجالات المعرفية المختلفة، فهي "تتركّب من كلمتين يونانيتين: إبستمي وتعني علم معرفة، لوغس كما تعني لغة وحكم، وهي أيضاً حسب الحالات إمّا دراسة حول العلم أو دراسة حول المعرفة"<sup>(3)</sup>، إذ ترتبط من جهة بالمنطق من حيث أنّها تهتمّ بدراسة شروط المعرفة الصحيحة، وترتبط بنظرية المعرفة "التي تختصّ بالبحث في طبيعة المعرفة وأصلها وقيمتها ووسائله وحدودها وهي غير السيكلوجيا التي تقتصر على وصف العمليات العقلية وتمييزها من بعضها البعض دون الفحص عن صحتها أو فسادها وغير المنطق الذي يقتصر على صياغة القواعد المتعلقة بتطبيق المبادئ العامة دون البحث في أصلها وقيمتها"<sup>(4)</sup>.

وعلى هذا الأساس وإنّ كانت مشكلة المعرفة قد تناولتها العديد من المذاهب الفلسفية كالعقلانية والتجريبية والتقدية التي حاولت كلّ منها البحث عن مصدر المعرفة وقيمتها فإنّ الإبستمولوجيا تدرس "طرق اكتساب المعرفة وطبيعتها وحدودها ولكن لا من زاوية التأمل الفلسفي المجرد بل من زاوية فحص المعرفة العلمية والتفكير العلمي فحصاً علمياً ونقدياً قوامه الاستقرار والاستنتاج معاً"<sup>(5)</sup>.

وفي هذا الصدد فإنّ الإبستمولوجيا كدراسة نقدية وعلمية للعلم لها مجال خاصّ كونها تهتمّ بالمشكلات الإبستمولوجية لكلّ علم، من حيث مهمّتها التقديية "لنظريات والمفاهيم والمناهج المستخدمة في العلم الذي يشتغل فيه المحلّل نفسه حيث يكون البحث عن الأسس الخاصّة بعلم ما"<sup>(6)</sup>، وهي ما يطلق عليها الإبستمولوجي وعالم النفس "جان بياجى" بالإبستمولوجية الداخليّة التي تراعي خصوصية كلّ علم وتطوره المستقلّ عن العلوم الأخرى.

أمّا في إطار المجال العام فالإبستمولوجيا تدرس المشكلات المعرفية المشتركة بين العلوم "فالتحليل الإبستمولوجي لمشكلات علم معيّن قد يكون مفيداً أيضاً في فهم مشكلات علوم أخرى، وهي الكيفية التي ينتقل بها التحليل من الإبستمولوجيا المستمدّة من علم محدّد إلى مجموع العلوم"<sup>(7)</sup>، حيث أنّ هذا التعاون بين العلوم في بحث المشكلات العامّة للمعرفة العلمية والتي تتمحور حول علاقة الذات بالموضوع ودورها في بناء المعرفة بشكل عام، مكّن العلوم الإنسانية من الاستفادة من تلك البحوث خاصّة ما تعلق منها بعلاقة الذات بالموضوع التي تطرح صعوبة على صعيدها، ومحاولة العمل على بحث "الشروط التي تنتج فيها الذات معارفها لتكون بذلك ذات فائدة في تحليل مشكلة المعرفة في جميع العلوم الأخرى"<sup>(8)</sup>.

وبالتالي فقد أصبحت العلاقة بين العلوم تبادلية سواء كانت منطقية أو رياضية أو إنسانية وغيرها، هذا التفاعل الدينامي "Dynamique" بينها أعطى العلوم الإنسانية قيمة بالنظر إليها كعلوم فاعلة وليس منفعة تابعة كآلية لمجالات معرفية أخرى يُعتقد بأنّها أكثر دقة منها وموضوعية، ومنه فالإبستمولوجيا لها علاقة بكلّ العلوم على اختلاف موضوعاتها ومناهجها من حيث وظيفتها التقديية للكشف عن الأسباب التي تحول دون الوصول إلى نتائج علمية موضوعية، لهذا السبب نجد أنّ "جان

بياجي" قد تناول مشكلة المعرفة من منظور مختلف عن سابقه، وذلك بتتبع تكوين هذه المعرفة ونشأتها في جميع العلوم من خلال الاستعانة بأحد العلوم الإنسانية وهو علم النفس التكويني وفقاً لمنهج علمي، بتأسيسه لفرع معرفي جديد وهو الإبيستمولوجيا التكوينية.

### ثانياً- الإبيستمولوجيا وعلم النفس التكويني:

يعدّ علم النفس التكويني أحد التّماذج المعرفية في العلوم الإنسانية، يسير وفق أدوات المنهج التجريبي المطبق في العلوم التجريبية، حيث تستفيد منه الإبيستمولوجيا التي يرى فيها "بياجي" علم إنساني قائم بذاته انطلاقاً من كونها استطاعت أن تحدّد موضوعاتها ومن ثمّ الطريقة التي بها تتمّ الدراسة العلمية لمختلف المعارف سواء كانت تجريبية أو إنسانية، وهذا ما يجعلنا إلى ضرورة التمييز بين "الإبيستمولوجيا التي تنتمي إلى التحليل الفلسفي تستفيد من المعطيات العلمية المضمونية والمنهجية للعلوم الإنسانية الأخرى، وبين أن نؤكد أنّ الإبيستمولوجيا ذاتها تصبح لأجل ذلك علماً من العلوم الإنسانية"<sup>(9)</sup> وبالتالي فإنّ استعانة الإبيستمولوجيا بعلم النفس التكويني فرضته الصّورة المعرفية والمنهجية في عملية البحث عن شروط تكوين المعرفة ونموّها المحلي، لذا فالأسئلة الجوهرية التي تُطرح في هذا المجال هي: كيف تتكوّن المعارف؟ وكيف تنمو؟

إنّ طرح مثل هذه الأسئلة يوحي بذلك التحوّل المعرفي في الدراسات الإنسانية من البحث الوصفي والفلسفي إلى البحث التجريبي الاختباري، هذا ما دفع "بياجي" إلى "نقد نظرية المعرفة الفلسفية من ناحية الموضوع والمنهج بغرض الوصول إلى فصل موضوع المعرفة عامة عن الفلسفة، وتأسيسها كعلم جديد مستقلّ أطلق عليه الإبيستمولوجيا التكوينية L'épistémologie Génétique"<sup>(10)</sup> التي يُكوّن موضوعها هو المعرفة العلمية من حيث تكوّنها وبحث شروط هذا التكوّن.

وهنا تجدر الإشارة إلى ضرورة معرفة معنى تكويني Génétique حيث عرّفها "بياجي" بقوله "هي نسبة إلى تكوين، وهو ما يتعلّق بتكوين كائن أو ظاهرة أو نظام، والمنهج التكويني دراسة علم من العلوم عن طريق تبني تكوينه"<sup>(11)</sup>، إذ أنّ مفهوم التكوين عنده يرتبط بمفهوم آخر وهو مفهوم البنية Structure الذي يخضع بدوره لمبادئ التحوّل والتطوّر، فالتكوين هو انتقال من الحالة (أ) إلى الحالة (ب) التي ينبغي أن تكون أكثر تطوّراً وثباتاً من الحالة (أ)... أي أنّه يشكّل مجموعة نظم تحدّدها التحوّلات والتطورات الحاصلة خلال مرحلة الانتقال من (أ) إلى (ب)<sup>(12)</sup>، وهذا ما يتركز على أهمية المكونات النفسية في تكوين البنيات المعرفية، إذ أنّ الدّات تلعب دوراً فاعلاً في إنتاج هذه البنيات عند الإنسان.

ومن هذا المنطلق فالإبيستمولوجية التكوينية يمكن تمييزها إلى قسمين: الأوّل يبحث في مبادئ العلوم بهدف تقويمها "بغية تفسير التطوّر الفكري للإنسان أو إلى وضع رؤيا مستقبلية لهذا التطوّر"<sup>(13)</sup>، ويسمى هذا الفرع "علم تاريخ المعرفة"، أمّا القسم الثاني فيبحث في التطوّر المعرفي عند الإنسان من الولادة إلى سنّ الرشد وغايته تحقيق أمرين هما "الأوّل تفسير الظواهر المعرفية، فإذا استخدم منهج العلوم الطبيعية اندرج تحت عنوان علم النفس المعرفي Psychologie Cognitive، أمّا إذا استخدم نتائج التشريح الدماغي والعصبي فإنّه يسمى عندئذ علم نفس - الأعصاب Neuro Psychologie"<sup>(14)</sup> أمّا الأمر الثاني فيبحث في تحليل كيفية توصّل الولد إلى المعرفة وتفسير عملية التّماء الفكري ويسمى في هذه الحالة "علم تكوين المعرفة Epistémologie Génétique"<sup>(15)</sup>.

إنّ البحث في الكيفية التي تنمو بها المعارف وتتكوّن في مجال علم النفس يعطي للدراسة طابعاً دينامياً بالابتعاد عن تناول المعرفة في صورتها المكتملة والجاهزة وهذا هو جوهر الإستمولوجيا التكوينية، وعليه فما طبيعة المنهج المعتمد في هذا البحث؟

**ثالثاً- وظيفة المنهج التكويني:**

إنّ معيار علمية المعرفة عند "بياجي" يقاس بمدى تجاوز الطروحات الفلسفية الميتافيزيقية، ولا يتحقّق ذلك إلاّ بتحديد الموضوع ومن ثمّ إتباع منهج علمي خاصّ، وهذا ما يرى أنّه قد تحقّق بالفعل في مجال العلوم الإنسانية، بحيث أصبح هناك تجاذب ومساحة ضيقة بين الذات والموضوع مكّنت من بناء علم إنساني مماثل للعلوم الطبيعية، بفضل تطبيق المنهج التكويني الذي يهتم بدراسة ونشأة وتكوين المعارف، وذلك بالاستعانة بعلم النفس التكويني الذي تستفيد من منهجه الإستمولوجيا التي تهتم في نظر "بياجي" بالمعرفة من حيث هيّ سيورة يكون عليها أن تُحلّل هذه السيورة في تطوّرها عبر المراحل المختلفة التي يظهر عليها لكلّ مفهوم من المفاهيم العلمية بكلّ ما يمكن من دقّة"<sup>(16)</sup>.

وعليه فالبحث في الكيفية التي بها تنمو المعارف وتتكوّن في مجال معرفي معيّن يتيح الفرصة أمام تناولها من عدّة نواحي بدراسة تاريخ المعرفة وحالتها الراهنة في علم ما، وكذلك الوقوف على الجانب المنطقي فيها، إضافة إلى التكوّن النفساني وعلاقته بالبنيات العقلية، وبالتالي "فتحديد الكيفية التي تنمو بها المعارف يستلزم أن نعتبر بمنهجية كلّ معرفة تحت زاوية نموّها في الزمن، يعني كسياق متصل حيث لا يمكننا بلوغ الانطلاقة الأولى، ولا النهاية، بعبارة أخرى: كلّ معرفة يمكن دائماً تصورها منهجياً، وذلك في علاقتها بحالة سابقة لها أقلّ معرفة منها مع افتراض أن تؤسّس هيّ نفسها حالة سابقة لها بالنسبة إلى معرفة أكثر تقدماً منها"<sup>(17)</sup>، وهذا ما يستلزم الاعتماد على منهجين أساسيين هما:

- المنهج التاريخي النقدي من حيث أنّه "يدرس بروز ونموّ ثمّ تطوّر مفهوم علمي ما أو مشكلة ما في تاريخ العلوم بغرض البحث عن المراحل والسياقات الأولى مروراً بمختلف الأطوار التي مرّ بها المفهوم أو تلك المشكلة وصولاً إلى الحالة الراهنة"<sup>(18)</sup>، وإذا كان هذا المنهج يطرح في تطبيقه بعض الصعوبات في التحقّق من بعض النتائج فالدراسة في هذا المستوى تحتاج في نظر "بياجي" منهجاً جديداً هو:
- المنهج السيكو-تكويني الذي حاول فيه أن يُبرز ذلك التماثل بين تفكير الإنسان البدائي والطفل الذي يعدّ أقرب نموذج معرفي من بدايات التفكير الإنساني، لوجود صعوبة التعرّف المباشر على نمط التفكير في تلك الحقب التاريخية المبكّرة، وهذا ما يجعل "بياجي" يضع نوعاً من المقاربة بينهما لأنّ "الشّيء المثير لدى الطفل هو بالضبط إيجاد دوماً أمامك فرد ينطلق من الصّفّر ورؤية كيف يحدث"<sup>(19)</sup>.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ بفضل اعتماد هذه المنهجية تمّ التوصل من خلال جهود "بياجي" إلى تحديد منهج علمي يضع الدّراسة على مسافة قريبة من التّحقّق التجريبي بهدف الكشف عن القوانين التي تفسّر مختلف العمليات العقلية العليا عند الإنسان، اعتماداً على علم نفس الطّفل أو علم النفس التكويني الذي أخذ مساراً تجريبياً في دراسة الظواهر النفسية والمعرفية بصورة عامّة.

وهكذا فإنّ الدّراسة في هذا المجال تتمّ من خلال اعتماد تجارب واختبارات واقعية باستخدام المنهج السيكو-تكويني الذي يتركز على دراسة النموّ العقلي والمعرفي عند الطفل، بدءاً من الرضاعة إلى مرحلة الرشد متّبعاً في ذلك تقريبا خطوات

المنهج التحريبي من ملاحظة الظاهرة ثم بناء الفرضيات من خلال طرح مجموعة من التساؤلات حول الظاهرة ثم تأتي مرحلة التحقق التحريبي بعد ذلك، وبالتالي تصبح مهمة الإستمولوجيا التكوينية "هي أن توضح كيف يتم الانتقال من معرفة ذات مستوى أدنى إلى معرفة ذات مستوى أعلى، لأن طبيعة هذه الانتقالات تعد مسألة واقعية، فإما أن تكون الانتقالات تاريخية أو سيكولوجية أو أحياناً بيولوجية"<sup>(20)</sup>.

إنّ هذا الانتقال من مستوى معرفي إلى آخر يبيّن الكيفية التي بها ينمو ويتطور التفكير عند الإنسان بشكل خاص وإسقاط هذا التطور المعرفي في مجال المعرفة بصورة عامة، إذ لا وجود لمعرفة جاهزة ومطلقة، بل لا بدّ من اعتبار هذه المعرفة سيروية Processus تنتقل في كلّ مرحلة من معرفة أقلّ دقة إلى معرفة أسمى منها "للتخذ مبحثاً لها "نمو المعارف" أيّ انتقالها من معرفة قليلة الجودة إلى معارف أكثر غنى وثراء، هذه الإستمولوجيا تعتمد منهجاً جديداً، وهي بهذا تتميز عن المناهج التقليدية التي أتبع في طرق مشكلة المعرفة، هذا المنهج يحاول أن يبلّغ آليات المعرفة في منبعها ونموها"<sup>(21)</sup>، ومنه فقد استطاع "بياجيه" تجاوز الإستمولوجيا التقليدية التي تقف على النتائج النهائية للعلوم فحسب، إلى تأسيس إستمولوجيا علمية تسعى إلى البحث في جذور المعرفة بمختلف أشكالها من لحظة النشأة إلى بلوغ المرحلة العلمية، بواسطة تطبيق المنهج التكويني الذي يسير على نفس خطى المنهج السيكيو - تكويني الذي حقق نتائج مهمة في مجال العلوم الإنسانية بتحديد المناهج لاسيما منها مناهج التربية والتعليم على سبيل المثال لا الحصر، باعتبار أنّ هذا المجال له علاقة مباشرة مع علم النفس التكويني خاصّة ما تعلّق منه ببحوث التطور المعرفي عند الطفل، التي أسهمت بشكل كبير في إعادة النظر في كثير من المناهج التربوية سواء بتعديلها أو بتجاوزها والكشف عن المناهج العلمية النشطة بدل تلك التلقينية.

## 2- السيكولوجيا التكوينية والمناهج الجديدة في التربية:

إنّ تعاون الإستمولوجيا مع علم النفس أسهم بشكل كبير في تجديد المناهج في مختلف مجالات المعرفة، ولعلّ أبرز مجال استفاد من هذا التقارب هو مجال "البيداغوجيا" ويتجلى ذلك من خلال الجهود الحثيثة لعلماء النفس والتربية في بحث مشكلاته المعرفية والمنهجية التي تحول دون التوصل إلى نماذج تعليمية وتربوية ناجحة وواقعية، وذلك بمحاولة إعادة النظر في الطرق والأساليب التربوية المتبعة في كلّ مرحلة تعليمية، ممّا يتطلب دراسة منهجية علمية تقف على جذور هذه المشكلات، وهذا ما تنبّه له "بياجي" الذي أولى اهتماماً بالغاً لهذه المسألة انطلاقاً من طرح جملة من التساؤلات بقوله: "ما هدف التعليم؟ تراكم المعارف النافعة، لكن نافعة بأيّ معنى؟ أمّ تعلّم كيفية التعلّم؟ تعلّم الابتكار وإنتاج الجديد في أيّ ميدان كان واكتساب المعرفة؟ تعلّم المراقبة والتّمحيص أم بكلّ بساطة تعلّم التّرديد؟"<sup>(22)</sup>.

إنّ مثل هذه الأسئلة يوحي مضمونها بوجود أزمة في مناهج التربية لاسيما التقليدية منها، التي تهتمّ بألية التلقين للقيم الاجتماعية والأخلاقية والثّقافية كأهداف للتربية، والتغافل عن التقنيات التي تحقّق بها هذه الأهداف، وهذا ما أثار اهتمام فلاسفة ومفكري التربية في العصر الحديث والمعاصر، من أمثال "روسو" و"فرويل" و"بياجي" وغيرهم الذين حاولوا انتقاد مثل هذا المنهج الذي يتجه نحو إرشاد الطفل ليكون متماثلاً مع النماذج الراشدة من خلال تلقينه معارف جاهزة ومطلقة وإهمال البحث عن مقوماته وطرقه الخاصّة في التفكير، وهذا ما اهتمّت به السيكولوجيا التكوينية، إذ أصبح بالإمكان

التأسيس لمناهج تربوية جديدة "تضع بعين الاعتبار طبيعة الطفل الخاصة، وتعتمد على قوانين النشوء النفسي للفرد وقوانين نموه" (23).

مما لا شك فيه أنّ هذا التحوّل المعرفي كان له الأثر الإيجابي في تجديد مناهج التربية بالدعوة إلى تكييف المدرسة مع الطفل وليس العكس، خاصة مع ازدهار الدراسات السيكولوجية والسيكو - سوسولوجيا باعتماد آليات منهجية علمية جديدة، تُولي عنايةها للملاحظة والاختبار في مجال البيداغوجيا، خاصة بعد نشأة السيكولوجيا التكوينية، الذي دفع بدوره إلى تغيير النظرة تجاه الطفل وفي هذا يقول بياجى: "أنّ العلم والناس النزهاء على العموم، أصبحوا مزودين بمنهاج وبنسق من المفاهيم تمكنهم من تتبّع نموّ الوعي وبالأخصّ نموّ نفسية الطفل، عندها فقط أصبح النشاط الحقّ فكرة قابلة لأن تُفهم وحقيقة يمكن تحليلها موضوعياً" (24)، وذلك بتتبّع النموّ العقلي والمعرفي عند الطفل، الذي يمرّ بأربعة مراحل تتدرّج فيها المعرفة من مستوى إلى آخر وهي:

- المرحلة الحسية الحركية وفيها يرتبط الطفل بالمحسوس، إذ "يتعلّم فيها الطفل فكرة استمرارية الأشياء وكذلك فكرة تنظيمها في العلم الفيزيقي وذلك من خلال المصّ (الرضاعة) ومسكه الأشياء ورميها" (25)، وهذا ما يطرّوّر لديه الإحساس بالأشياء.
  - المرحلة ما قبل الإجرائية وفيها يبدأ الطفل بالتعرّف على الأشياء في صورتها الرمزية من خلال زيادة الوعي بما تعرّف عليه في المرحلة السابقة، وهنا تلعب اللّغة دوراً مهماً في عملية التفكير السريع.
  - المرحلة الإجرائية المحسوسة وفيها يمتلك الطفل القدرة على تطوير تفكيره الاستدلالي، "لكن هذا الاستدلال يبقى محدوداً ضمن نطاق ما يشاهده الطفل في هذه السنّ على الأشياء الفعلية" (26) بمعنى أنّه يبقى مفتقداً لعملية التجريد.
  - المرحلة الإجرائية الصورية وتمثّل مرحلة النضج بالنسبة للطفل، وذلك لتمكّنه من التوصل إلى "الاستدلالات عن طريق استدلالات أخرى، كما يبدأ في استخدام الفروض العقلية ومناقشة الآخرين: فيتأمل ويتبصّر وتكون علامة الذكاء في هذه المرحلة متمثلة في قدرة الطفل على التعاون مع الآخرين مستعيناً بالتفكير الموضوعي لا الدّاتي" (27)، من خلال اعتماد التفكير العلمي.
- وهكذا فإنّ الكشف عن هذا النموّ الذهني عند الطفل من خلال استخدام منهج السيكولوجيا التكوينية مكّن من تطوير البحوث البيداغوجية، بالكشف عن مناهج علمية تربوية جديدة نشطة تراعي بنيات كلّ طور من أطوار النموّ عند الطفل، وهذا ما انعكس إيجابياً على الأداء التعليمي والتربوي بممارسة النشاط الحرّ داخل ما يطلق عليه "المدرسة النشطة" التي "تطلب من الأطفال أن يفعلوا كلّ ما يشاءون، بل هي تريد أن يرغبوا في كلّ ما يفعلون، أن يتحرّكوا لا أن يُحرّكوا" (28)، وهذا ما له دلالة على فعالية منهج السيكولوجيا التكوينية كمنهج علمي موضوعي كشف عن قوانين التطور المعرفي لدى الطفل خاصة ومقاربة ذلك بالتطور العام في العلوم، فهو منشأ المناهج الجديدة في البيداغوجيا وغيرها من مجالات العلوم الأخرى.

## خاتمة:

إنّ العلوم الإنسانية كغيرها من العلوم استطاعت أن تؤسس لذاتها مناهج نوعية تتناسب وطبيعة موضوعاتها، متجاوزة بذلك عوائقها الإستمولوجية، ولو بصورة نسبية، ممّا فتح أمامها أفقاً جديدة مكنتها من وضع مفاهيم ونظريات علمية مرتبطة بحقلها المعرفي، ولعلّ اتصال الإستمولوجيا المعاصرة بما فتح أمامها المجال لتجديد موضوعها، ومن ثمّ البحث عن المنهج العلمي الملائم لذلك، بتجاوز رؤية هذه العلوم من خارجها، ومحاولة فهمها وتفسيرها من داخلها، وانطلاقاً من ذلك أصبح للعلوم الإنسانية موقفاً خاصاً وفاعلاً ضمن المنظومة المعرفية المعاصرة، وهو ما يبرز من خلال حقل الإستمولوجيا التكوينية كعلم إنساني مستقل بذاته، تتعاون فيه الإستمولوجيا مع علم النفس التكويني، يبحث في تكوّن ونموّ المعارف العلمية، عن طريق المنهج التكويني الذي يقترّب من حيث موضوعيته من المنهج العلمي المطبّق في العلوم الطبيعية، وبذلك تعدّ الإستمولوجيا التكوينية أحد النماذج العلمية لتطبيق المنهج في العلوم الإنسانية.

## هوامش البحث:

- 1 محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم، العقلانية المعاصرة وتطوّر الفكر العلمي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط4، 1998، ص 23.
- 2 Tort Patrick François, culture et science humaines, édition marketing, Paris, 1985, p 310.
- 3 Léna Soler, Introduction à l'épistémologie, Ellipses édition Marketing, Paris, 2000, p 14.
- 4 جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، الشركة العالمية للكتاب ش م ل، مكتبة المدرسة، دار التوفيق بيروت، د ط، 1994 ص 478.
- 5 محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط4، 1998، ص 48.
- 6 محمد وقيدي، الإستمولوجيا التكوينية للعلوم، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2010، ص 20.
- 7 المرجع نفسه، ص 21.
- 8 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 9 محمد وقيدي، العلوم الإنسانية والإيديولوجيا، مطبعة فضالة، المغرب، ط2، 1998، ص 70.
- 10 الزواوي بغورة، مدخل جديد إلى فلسفة العلوم، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص 161.
- 11 جان بياجي، الإستمولوجيا التكوينية، تر: السيّد نفاذي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، دط، 1991، ص 25.
- 12 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 13 مريم سليم، علم تكوين المعرفة، إستمولوجيا بياجي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2002، ص 59.
- 14 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 15 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 16 محمد وقيدي، ما هي الإستمولوجيا، مرجع سابق، ص 235.
- 17 زواوي بغورة، مدخل جديد إلى فلسفة العلوم، مرجع سابق، ص 164.
- 18 المرجع نفسه، ص 165.
- 19 المرجع نفسه، ص 166.
- 20 جان بياجي، الإستمولوجيا التكوينية، مرجع سابق، ص 44.
- 21 عبد السلام بنعبد العالي، درس الإستمولوجيا، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1985، ص 55.
- 22 جان بياجي، علم النفس وفنّ التربية، تر: محمد بردوزي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1986، ص 17.
- 23 المرجع نفسه، ص 103.
- 24 المرجع نفسه، ص 110.
- 25 موريس شريل، التطور المعرفي عند جان بياجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1991، ص 83.
- 26 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 27 جان بياجي، الإستمولوجيا التكوينية، مرجع سابق، ص 28-29.
- 28 جان بياجي، علم النفس وفنّ التربية، مرجع سابق، ص 113.